

1- مقدمة:

تبعاً للعلاقة القائمة بين الجسد والنفس هناك ألم جسماني عضوي، وألم نفسي. "وكل ألم في الجسد يصاحبه ألم في النفس، وقد يحدث ألم النفس دون ألم في الجسد وقد يؤدي ألم النفس إلى ألم في الجسد، ولهذا لا يمكن أن يكون الألم حيادياً، لا يمكن أن تصاحبه مشاعر محايدة، لا يوجد ألم بلا معنى، أو بلا مغزى. ولهذا فإن الألم خبرة نفسية، تجربة سيكولوجية، تشمل على الإحساس بالمعاناة وترتبط بمتاعب الجسد وعذابه"¹. ومن المستحيل أن ينفلت المرء من الألم سواء الجسدي أو المعنوي.

والقصة هي الشكل الأدبي الأكثر تعبيراً عن انفعالات الإنسان، عمادها التلاحم العاطفي. إن أول ميزة تمتاز بها القصة هي الصلة الحميمة بينها وبين الواقع؛ تتأرجح بين محاكاة الوقائع، أو تمثل الحالات، وتعبيرها عن اهتمامات الإنسان المختلفة؛ مشاعره وآلامه وهي كلها مرتبطة بالجانب النفسي للإنسان. ويمكن أن نمثل لهذا الأمر بالمجموعة القصصية "ابتكار الألم" للكاتب "محمد جعفر". لكن الشيء المثير في هذه القصة هو هذا الابتكار للألم؛ إنه ليس وليد ظروف ولكنه ألم مبتكر بتخطيط من شخصيات القصص، حتى تتجاوز الألم الحقيقي وتقهر معاناتها الثقيلة. إن هذه المجموعة القصصية لا تروم قصداً آخر غير كتابة قصصٍ مرجعها الألم.

انطلقنا في هذه الورقة البحثية مدفوعين بجملة من التساؤلات:

- هل الألم يُحس أو يبتكر؟ هل نحن فعلاً نبتكر الألم؟
- هل يمكن أن يكون هناك ابتكار للألم من قبل صاحبه؟ أم سيعطينا القاص صورة لألم جديد غير معروف؟

وقد افترضنا من خلال هذه الورقة البحثية، أن القاص محمد جعفر عمد في عمله الفني، والموسوم بـ "ابتكار الألم" إلى تشخيص ألم الفرد العربي المعاصر عامة والجزائري خاصة. تقود نحو استخلاص رؤية نقدية عن المجتمع العربي؛ بحيث يكون التخيل بالنسبة إليها، أفقاً للمبادرة والابتكار، وتجاوز الرتبة الاجتماعية والواقعية الفجة.

ومن البديهي أنّ الموضوع عندنا سيحاول الجمع بين الجانبين النظري والتطبيقي، ذلك أن التساؤلات التي طرحناها، لا يمكن الحصول على إجابة عنها ما لم يلم هذا البحث بدراسة الجانبين، معتمدين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي، الذي يسمح بمقاربة موضوعة الألم في المجموعة القصصية التي أخذناها كنموذج للدراسة.

2. محمد جعفر:

الكاتب الجزائري "محمد جعفر"، من مواليد 1976 بولاية مستغانم؛ حاصل على ليسانس آداب من جامعة السانية بوهرا. يكتب في أكثر من مجال أدبي من شعر، وقصة ورواية، إضافة إلى أنه يكتب المقال في الصحافة الجزائرية.

من أهم مؤلفاته: مجموعة شعرية بعنوان "العبور على متن الحلم"، أما في مجال الرواية فصدرت روايته الأولى بعنوان "ميدان السلاح"، وروايته الثانية تحت عنوان "هذيان نواقيس القيامة". وفي القصة "طقوس امرأة لا تنام"، و"ابتكار الآلم".

تمتاز قصصه بالواقعية التي يختصر فيها عالم الكاتب بضربة نقد سريعة من خلال المجتمع الذي تقدمه، والذي لا يختلف كثيراً عن المجتمع الجزائري في الواقع خارج هذه النصوص، سواء في طرق العيش أو أنماط السلوك، كل ذلك تعكسه نصوص كثيرة في مختلف مجموعاته القصصية. تعبيراً عن الوضع الراهن القلق وتطلعاته المجهضة.

3. موضوع القصة:

ارتبط الفن القصصي بالواقع والتعبير عنه تشخيصاً ونقداً وكشفاً. حيث تغوص أغلب القصص الحديثة في ثنايا الواقع. يختار الكاتب أحياناً موضوعاً يتخذ منه قصة. لكن الأمر كما يرى "خوليو كورتازار"، ليس بهذه البساطة. "أحياناً تتحكم إرادة الكاتب في اختيار الموضوع، وأحياناً أخرى يفرض الموضوع نفسه على الكاتب فرضاً. كما يرى أن الكاتب الجيد هو الذي يختار مواضيعه من الأحداث العادية والمألوفة، لكن تناوله يجب أن يشكل اختراقاً لهذا المألوف، وفقاً لأسلوب الكاتب ومدى قدرته على التحكم في عنصري الكثافة والتوتر. ليس وراء كل قصة استثنائية حدث أو موضوع استثنائي"². يقول: "أرى أن الموضوع الذي تنتج عنه قصة جيدة هو دائماً استثنائي، لكن ليس معنى هذا أن الموضوع يجب أن يكون خارقاً للعادة، خارجاً عن المألوف، لغزياً أو غريباً. على العكس من ذلك، يمكن أن يتعلق الأمر بحدث مبتذل وعادي. الاستثنائي يكمن في خاصية تشبه خاصية المغنطيس، إذ إن الموضوع الجيد يجذب نظاماً كاملاً من العلاقات المترابطة. يتخثر هذا الموضوع لدى الكاتب، وبعد ذلك لدى القارئ، ككم هائل من المفاهيم والرؤى والأحاسيس، بل والأفكار التي تطفو افتراضياً في ذاكرته أو إحساسه. الموضوع الجيد كالشمس، نجم يدور حوله نظام فلكي لم يكن لأحد علم به إلى أن جاء القصص، عالم فلك الكلمات، فكشف لنا عن وجوده"³.

كما أنه لا وجود لمواضيع أحسن من الأخرى، وإنما يتوقف نجاح الموضوع على طريقة تناوله من طرف الكاتب؛ أي بأسلوبه وعلاقته بالقارئ، وقد عبر عن ذلك كورتازار بقوله: "إن الذي يختار موضوعاً ويجعل منه قصة ناجحة سيكون قصاصاً كبيراً؛ إذا كان اختياره أحياناً دون أن يكون على وعي بذلك،

يملك هذا الانفتاح الساحر للصغير على الكبير، أي لما هو شخصي على كل ما يرتبط بماهية الشرط الإنساني. كل قصة خالدة هي كالبذرة التي تنام في داخلها شجرة عظيمة. سوف تنمو هذه الشجرة بيننا وتلقي بظلالها على ذاكرتنا"⁴.

ففن القصة ممارسة احترافية تستوجب معرفة بعض أسرارها الكبرى. " قبل الشروع في الكتابة يجب تفادي السقوط في العفوية والتفكير في أحسن أسلوب لتواصل مع القارئ ونقل الأحاسيس النصية إليه بمهنية عالية. تتمثل هذه المهنية، أولاً، في خلق جو خاص بالقصة يشد القارئ إلى النص، ويخرجه من كل ما يحيط به، حتى إذا انتهى من القراءة عاد إلى محيطه برؤية أعمق وأجمل؛ وثانياً، في استعمال الكثافة والتوتر مع ضبط هذين العاملين وتكييف وجودهما مع موضوع القصة لجعلها منها نصاً ذا شكل بصري وسمعي يمتاز بأصالته وتفردته حتى يصبح نصاً لا ينمحي من ذاكرة القارئ"⁵. لاسيما إذا كان النص السرد القصصي يوههم بمرجعية واقعية لأحداث القصة.

4. الأدب والألم:

يعدّ السرد القصصي من أفضل وأكثر الألوان الأدبية ارتباطاً بالتفاعلات الاجتماعية. "وقد أصبح ضرورة ملحة، تفرضها الظروف والمواقف والأحداث، التي غالباً ما يتلاءم فيها المعمار الفني مع الحياة؛ فيتلون بأطيافها المختلفة. إنّ القصة هي فن الاختزال واقتناص مشاهد من الحياة اليومية، يستطيع السارد أن يوصلها إلينا في عددٍ محدود من الصفحات؛ إذ تعد القصة القصيرة من أهم الظواهر الثقافية التي تحمل في طياتها أهم معطيات الحياة المتعددة"⁶؛ فبفضل قدرتها على هضم معطيات الواقع العميقة، يستعين بها الأديب ليقدم من خلالها واقعه الحي الزاخر بالأحداث والمواقف المعينة والمختلفة⁷. وذلك من خلال تقديم مشاهد وصفية لحياة شخصيات أعماله القصصية، وتركيز الحديث على الروابط الاجتماعية المتينة التي تربط الشخصيات، لتمتدح فيها الأبعاد الحياتية امتزاجاً عجيباً ودقيقاً.

وينهض الألم القصصي، بوصفه بعداً حياتياً، من السجل الشخصي والتاريخ الجماعي، بيد أنه يتحوّل إلى شعور غير تاريخي ولا موضوعي؛ هو ذريعة خطابية ومرتكز تخييلي، ينجدل مع مسعى القصة إلى الحرية، ومجاوزة الحدود⁸.

وقد استدعى هذا الافتراض مقروناً بتلك التحولات الكبرى في مسار السرد القصصي والتي جعلت موضوعات الحب والمرض والعائلة والمدينة تهيمن على عوالم السرد العربي المعاصر، بشكل يكاد يكون كلياً، وهي الموضوعات التي تتقاطع في قاعدة الألم الناتج عنها أو المولد لها. ويعد الكاتب محمد جعفر في مجموعته القصصية (ابتكار الألم) من بين الكتاب المعاصرين الذين استطاعوا تشخيص ألم الفرد العربي؛ فعمله هذا تشخيص في أحد أوجهه لمأساة الإنسان العربي المعاصر؛ "فهي سردية

لـ "الألم - المرض - الخيانة - الفقد..."، نصّ عن تحولات الزمن والمدينة والعائلة، نصّ لكل اللّوعات المتخيّلة، والأعطاب التي يمكن أن تطول النفس والجسد⁹. وتقود نحو استخلاص رؤية نقدية عن المجتمع العربي بحيث يكون التخيّل، بالنسبة إليها، أفقاً للمبادرة والابتكار، وتجاوز الرتبة الاجتماعية والواقعية الفجة.

5. الألم في المجموعة القصصية "ابتكار الألم":

يتحدّد العنوان باعتباره علامة كبرى، "تنهض على مجموعة من العلاقات اللسانية التي يمكن أن ترسم على نصّ ما بُغية تعيينه، ومن ثمّ، الإشارة إلى محتواه العام. وهو، أيضاً، عتبة رئيسة تمدّ حبل الغواية لاستثارة استجابة المتلقي، وجعله يدلف إلى عوامل التخيّل وفضاءات الإدهاش. إن العنوان آلية فنيّة أولى، تساق مع فعل الكتابة ومنجزه الفنيّ، كما أنه ملفوظ يؤسس لخلق انتظارات لا تتحقق إلّا في إطار تماهيا مع الملفوظ النصّي ككلّ. ولئن تعدّدت وظائف العنوان، فإنّ الوظيفة المرجعية ستكون مرتكز المسألة أساساً، وفق منطلق الرؤية الذي يجعله يحيل - قبل أي شيء آخر - على النصّ"¹⁰.

يتبدى العنوان في المجموعة القصصية "ابتكار الألم" من خلال مفردتين تمنحانه شرعية طرح القارئ لتساؤلات عدة: هل الألم يُحس أو يبتكر؟ أليس الألم قرين الإحساس، والإحساس آية الحياة. ولا يمكن أن تُتصور حياة خالية من الإحساس؛ فمنذ متى لم تتمخض الحياة عن الألم حتى يحاول الكاتب أن يبتكره من جديد؟ هل الألم يبتكر؟ أم سيعطينا القاص صورة لألم جديد غير معروف؟

يجيبنا "محمد جعفر" عن ذلك قائلاً: "في الحقيقة الألم هو مجموعة مشاعر تكاد تكون متباينة، أو درجة الشعور بها عند الأفراد تكون متباينة من شخص إلى آخر، لكن ما أردت أن أقوله أن الألم كيفما كان كيف يُمكن أن نقوله؟ هنا كان الاختلاف في هذه المجموعة القصصية؛ فالكتابة في حد ذاتها فن كتابي وليس ماذا تريد أن تقول؟ ولكن كيف تقول؟ ومن هنا جاء الابتكار، أي أنك تبتكر أساليب أو طرق تعبر فيها عن ألم الأشخاص"¹¹؛ فقد أشار، هنا، إلى ضرورة الانتباه إلى كيفية التعبير عن الألم. إنّ أصعب ألوان الكتابة، على الإطلاق، هي الكتابة التي تعبر عن الآلام الجسدية والحسية، حيث تتطلب الكتابة في هذا النوع المهارة للكشف عن الآلام رغم أنها مستترة. كما أن الألم إحساس وشعور معقد شديد التشابك.

يا له من عنوان شيق: "ابتكار الألم" هذا الذي اتخذ القاص الجزائري "محمد جعفر" عنواناً لكتابه القصصي، الصادر عن منشورات الاختلاف، سنة 2017، وهو عبارة عن إحدى عشرة قصة، هي استنطاق لأوجاع لا تموت، حاول الكاتب من خلالها التركيز على جوانب إنسانية قد تكون مخفية أو

غير منتبهٍ إليها بالقدر الكافي: فالألم، هنا، هو "شعور أو انفعال يمتاز الكائن بوعيه له، وإلى درجة يتم معها اجتراحه، أو ابتكاره على حد تعبير المؤلف ومن دون الوقوع في غواية المازوجية"¹².

تتميز أغلب قصص المجموعة بإحدى تقنيتين رئيسيتين:

- "تقنية العنونة الداخلية: حين يكون للقصة بالإضافة إلى عنوانها عناوين داخلية لأجزائها السردية كأن في كل قصة قصة أخرى. حيث تفتت القصة إلى عدة أجزاء.

- وتقنية النص داخل النص: حين نجد القصة تتحدث عن نصوص داخلية أخرى يقرأها السارد أو شخصيات القصة ويؤولونها أو يتأثرون بها أو ينسجون معها علاقات خاصة"¹³.

لقد حاول الكاتب من خلال عمله هذا "أن يسلط الضوء على مساحات مخفية من النفس البشرية يستبقها الألم وينتهك سلامها الداخلي بصمتٍ، تتكشف بلغة متقنة ومكثفة المضامين، أوجاع مسكوت عنها أو يغفل عنها البعض منا، وربما لا يعتبرها موجودة لأن الحياة الخاصة لكل أبطال قصصه تتولد عنها آلامٌ يتجاهلها الكثيرون أو لم تكن محل تجريب من قبل، فيجتهد القاص في كشفها وتعريتها وابتكارها على نحو آخر لتشفى وتنتهي أعراضها ومُسبباتها لكي لا تبقى مجرد آلام أو مجرد قاتلة بكماء، مثل استغاثة أو تنبيه بحيث ينهنا إلى أن بعض الألم هو ثمن عادي للبقاء على قيد الحياة"¹⁴.

لقد لجأ "محمد جعفر"، في مجموعته القصصية، إلى ابتكار أنواع من الآلام من قبل أبطال قصصه، وهو من قبيل التخلص من الألم الأول الحقيقي؛ ذلك الألم الذي يزيدنا إصراراً على مواجهته أو التداخل معه أو الانتصار عليه؛ ابتكار ألم جديد يكون الألم الأول محوره الذي يقوم عليه؛ إذ يرتبط به ارتباطاً وثيقاً، وهو ما تعول عليه كل شخصية متألمة.

تتميز هذه المجموعة القصصية بقدرتها على الإنصات للكائن الإنساني في حميميته عبر النفاذ إلى ذاته وتسليط الضوء على ما يجري فيها من توترات وتحولات نفسية بحس نقدي يقظ؛ فعلى شاكلة بوح سردي مؤلف وكاشف، حاول الكاتب أن يغوص في أعماق الشخصية ليفجر آلامها ومنغصاتها، أحلامها وإخفاقاتها. وهو يهدف من وراء ذلك الإشارة إلى ما ينقص الواقع ليكون أفضل، ليكون عالماً جميلاً: الإخلاص في العلاقات، انتصار الحق، الزواج السعيد...

في قصة "الشك"، مثلاً، تضفي شخصية لا اسم لها طابعاً خارجياً على زواجها الفاشل، وبطريقة استعارية تنقله إلى المسرح أمامنا. تتجرع الزوجة مهانة التغاضي عن خيانة زوجها المنتهكة للعلاقة الزوجية المقدسة. لم تكن المرأة، هنا، مجرد امرأة عادية؛ فقد حملت الأحداث واللغة مشاعرها الأنثوية ويغلب عليها الحزن والألم. وقفنا على ذات مجروحة. وهذا جرح متأث من الماضي، حيث نقرأ قصة امرأة في مراحلها المأساوية المختلفة من لحظة زواجها إلى لحظة عثورها على منديل ورقي

محشور في جيب سروال الزوج؛ مندبل مطوي بعناية يتضمن رقم هاتف محمول كتب على عجل؛ فزواجها القهري وسلسلة أخرى من الخيبات والألام عاجزة عن الإبانة عنها، عادت لتظهر من جديد بعثورها على الرقم المجهول، الأحداث وذكرياتهم تراكم داخلها، تتزايد تتكثف. تكتظ في جوفها مثل أحجار ثقيلة. تكاد تنفجر. كيف لها أن تفصح للآخر ببعضه. لم تحكه لأحد، لم تسرده حتى على الفراغ. إنه حبيسها في اللاوعي. فتبتكر، هنا، ألماً آخر، بحيث تراودها شكوك بأن يكون الرقم لسيدة وتكون هذه الأنثى عشيقة زوجها. وراز، هنا، للزوجة أن تولد ألماً جديداً؛ فليس غريباً أن يأخذ تفكيرها هذا المنحى، نتيجة فتور عاطفة زوجها اتجاهها.

تسعى الزوجة إلى كشف حقيقة هذا الرقم عبر سلسلة من الاحتمالات والوسائل المختلفة سعياً لإيجاد إجابة واضحة عن ما يراودها من شكوك. وتكون، في الآن نفسه، حُجة دامغة عن خيانة الزوج لها. وفي خضم صراعها مع الشك، وبعد مدّ وجزر، تتراجع عن ذلك كله مع عودة أبنائها من مدارسهم، حتى إنها راحت تعاتب نفسها. وهذا لا عيب فيه، بل يعدّ هذا الترك ذكاء من قبل الزوجة إن صح التعبير، لأن السقوط في الشك هو معرضة لتدمير العائلة. ومن أجل مجانبة هذا الاحتمال أو الخطر الذي يهددها، "تتحمل الزوجة أن يقتل الألم جزءاً منها لتسمح للجزء المتبقي منها بالعيش؛ فحين يعرف الأولاد وكلام الناس الذي يحمل استخفافاً واستهزاء، يترىص بها أطماع المجتمع إذا ما انتصرت لكرامتها"¹⁵. وهذا ما أخرص الزوجة عن توجيه السؤال إلى زوجها، جاعلاً إياها بكماء لا قدرة لها على المجادلة. فالكلمة وحدها لا تكفي، في ظروف كثيرة، لذلك يصبح اللجوء إلى القوة الصماء البكماء وسيلة فعالة لتغيير الأوضاع، وقد يكون أحياناً يأس من التفاهم وتخل عن الحوار. غالبت ألماً يخنقها عندما يلقي الشك بظلاله على تفكيرها، أفقاً لتتجاوز الرتبة الاجتماعية والواقعية الفجة. وقد ظلّ الألم رديف الشك والتوهم والبحث عن الخلاص وتخطّي المحن.

وقد شعر الكاتب بعلو هذا الموقف الذي اتخذته الزوجة فصوره تصويراً دقيقاً ملائماً. ليؤكد بذلك أنّ صبر المرأة أساس استمرار الحياة الزوجية.

ومن المعروف أن المرأة من أهم صفاتها التحمل؛ فإذا باحت المرأة بالمكنون أو باحت بالألم، فاعلم جيداً أنها قد خرجت عن نطاق سيطرتها تماماً، وأن الألم قد فاق قدرتها على التحمل. بهذه الكيفية والتي بث فيها الكاتب الحالة النفسية التي تعيشها الزوجة إزاء هذا الشك الذي ينتابها، يسلط محمد جعفر الضوء على ما يعتري العلاقات الإنسانية، ومنها الزوجية من تعقيد.

وتبقى العلاقات الإنسانية ميداناً رحباً وحقلًا غنياً لانشغالات الآداب والفنون السردية؛ إذ نجد للقاص محمد جعفر ضمن هذه المجموعة القصصية قصة "موعد خارج الإطار"، حاول الكاتب من خلالها التلويح إلى أعماق أسرار العلاقات الإنسانية، حيث تبدأ أحداث هذه القصة بمشهد انتظار البطلة لصديقها في الشارع وفقاً لموعد مبروم بينهما، وكانت قد وصلت قبل حلول الموعد بقليل، وفي

لحظة الانتظار هناك انتظارات أخرى لا تنتهي في أزمنة متلاحقة ملتهبة، حيث تتعرض لأشكال من المضايقات والتحرشات من قبل المارة، مما يجعلها تخرج رويداً من جو الصفاء واللاهفة على اللقاء بالصديق؛ إذ تنبني معاناة البطلة عبر تصادٍ باطني بين وعي الشخصية وزمن الانتظار؛ فتتجلى، قصصياً، "عبر مفردات ومجازات تكثف طبقات المدى الوقي، وتحوله من مساحات ذهنية تحسب بالثواني والدقائق إلى مجال عاطفي، وكتلة من الانفعالات الشعورية الحادة والضاغطة، إلى توتر السرد وتنجز القيمة البلاغية للألم القصصي"¹⁶. فالبطلة بعد أن اصطدمت بالآخر اصطداماً مدوياً، جعلها في موضع الاحتقار، وأثار في نفسها ما كانت ترفض الإقرار به؛ إذ كانت في اللاشعور رافضة لصديقها غير مقتنعة به؛ فتشابكت صورة المعتدين عليها مع صورة صديقها، ساعدها في تقرير إنهاء علاقتها به التأثيرات النفسية التي تركها المارة. لقد ساعدتها على إخراج تلك المهمات المبتوثة في اللاوعي. وحين يحل هذا في الموعد وبغير تأخير، فإن البطلة تكون قد انتقلت إلى مزاج آخر، هو مزاج التحسس من الآخرين بمن في ذلك صديقها الذي بدا شبه غريب أمامها. تبدو البطلة في نهاية القصة كمن أضاع الهدف وتاه في الطريق، تعثرها الخيبة والإحباط، وشعور مزيج من وعي شقي ورومانسية بائسة، فتاة حزينة مؤمنة بأن الفرح سيأتي ذات يوم وربما يُجنّبها الإحساس بالسأم والملل. لقد تمكنت من الابتسامة بصفاء وراحة لأول مرة.

تحول آخر في العلاقات نجده في قصة "الفحل الذي أكل قلبه"، نحن حيال بطل يقوم بمغامرات عاطفية لكنه مشدود، في الوقت نفسه، إلى مغامرات السرد والتزامه حيالها، حتى إنّ رفيقته - وهي قاصة أيضاً - تتوسل العلاقات العاطفية من أجل الارتقاء الأدبي، وهي بذلك تشين إلى الفعل الثقافي. وتسيء إلى الدور الريادي للمثقف العربي، فهذه الفئة أثر كبير في المجتمع والدولة. يتحول لقاء بينهما في فندق، إلى مناسبة يتم فيها السعي لإنجاز أدبي. والحال أن البطلة تروم من رفيقها الذي يحظى بمكانة أدبية أن يكتب مقدمة لباكورة قصصية تستعد لإصدارها. محاولة ولوجها مغامرة الكتابة بإقبال لا مثيل له على الإطلاق. مفعمة سروراً وطموحاً إلى نشر إبداعها الفني في سياقه المحلي والعربي والعالم. ويتحقق لها ما تريد كما يبلغ هو هدفه. وهو تصوير بليغ لما آلت إليه العلاقات الإنسانية، يختلط فيها ما هو إنساني بما هو مصلي. ولعل هذه الظاهرة ذات صلة بالتحول الاجتماعي والثقافي الذي يشهده العالم العربي. تبوح هذه القصة بأشياء لا يمكن إخفاؤها؛ حيث تسعى هذه القصة إلى مساءلة فعل الكتابة- عبر تشخيص لوضع الكاتب في المجتمع وعلاقته بمختلف مكونات محيطه السوسيو ثقافي، وكل ما يصاحب عملية الإبداع من مشاكل وتعقيدات. هذا التشخيص نابع من معاناة المبدع الذي يسعى إلى إيصال منتوجه الثقافي أو الإبداعي إلى القراء. إنها أزمة النشر في بلادنا؛ وبحكم أن الكاتب منغمس في الفعل الثقافي سواء عبر علاقاته بمن حوله من أهل الاختصاص أو من خلال ممارسته للسرد عبر الكتابة، كان من البديهي أن ينكوي بنيران هذا الواقع ويعبر عنه في كتاباته.

إنَّ القارئ لهذه القصة يجد نفسه أمام ساحة يتصارع فيها نمطان من المشاعر: نمط اللذة ونمط الأنا الأعلى والموانع (المرأة).

ونقف في قصة "الحاجز" على شكل آخر من أشكال الألم؛ إذ يشعر القارئ أنَّ البطل يعيش وحيداً معزولاً متشدداً فخوراً بمسؤوليته. ومن جانب آخر هو يشعر بعزلة. لقد وجد البطل نفسه متنقلاً من كونه صاحب قضية ومطارد إلى آخر مجهول. فيغدو غريباً تائهاً في وطنه، ويشخص الكاتب هذه الغربة أقوى تشخيص. أليس موجعاً أن ينتهي النضال إلى أثر باهتٍ أو ظل شفافٍ؟

تماماً وجد البطل نفسه في قصة "صاحب ظله"، أحسنَّ البطل بالأسى والحزن الشديدين للعلاقات البالية الأنية التي تنتهي بانتهاء المصلحة؛ فرغم تمتعه بصداقات، فإنه لا يجد صديقاً يلزمه مثل ظله، يتمظهر كقرين وكشبح في الوقت ذاته. يدخل البطل في صراع داخلي يجعله يشكك في كل شيء حتى في نفسه؛ يضايقه كل شيء ويسعى للتخلص من كل شيء. حين يشعر البطل بالوحشة وسط سهرة، يغادر رغم إلحاح الأصدقاء عليه بالبقاء. وهناك في الخارج وتحت جناح الليل تندفع مجموعة أشقياء للاعتداء عليه. وبغير سبب، يتعرض لطعنة مدية تخترق جنبه الأيسر. جاهداً، يكتب ألمه فيما راحت دماؤه تسيح وتغطي الأرض حوله. ولا يجيد مُغيثاً سوى عابر سبيل يقوم بتغطيته بأوراق صحيفة، فيما هو ما زال على قيد الحياة؛ فتبعثرت الذّات والأفكار والجسد.

بهذا المعنى، يتلّون السرد في المجموعة القصصية "ابتكار الألم" بالعديد من التفاصيل، تلملمها الشخصيات من أجواء اليومي والذاتي والمحادثات العابرة، تستعيد لها عبر الإحساس الخفيّ أو حالة الشرود، عبر المواجهة والخنوع، الرفض أو التمرد، تعيش الشخصية تمزقاً أنها ويقودها القدر إلى أفق مسدود¹⁷.

إنَّ ملامح الأبطال في مجموعته القصصية جذابة مثيرة إرادة قوية، ذكاء خارق كلهم يواجهون الألم وينتصرون عليه، يتحدثون بذلك عوائق الحياة ومقاييس المنطق العام. فكانوا بذلك معرضاً لطيفاً فيه الألم والفرح، الجمال والقبح، الرّعونّة والسكينة.

وما يضيفه محمد جعفر في هذه المجموعة القصصية، هو السرد الواقعي "الذي يبدو في ظاهره تقريرياً مباشراً يتجه إلى قارئ راهن وحاضر، فيما هو في واقع الأمر سرد زاخر بالظلال لبؤرة الحدث ولكل ما يحفّ بها عبر لغة مشرقة ودقيقة، لا محل فيها للترديد النصّي أو الإغراق من الوصف، أو إثارة عاطفية (الميلودراما)"¹⁸.

إنَّ اللغة التي صيغت بها تلك القصص هي لغة يغلب عليها الحزن والألم، وكأنَّ القاص لا يريد أن يترك قارئه دون أن يجعله يرتجف ألماً. لقد استطاع الكاتب أن يتغلغل في نفسيات الشخصيات، وأن يطلعنا على رغباتها ومنكّناتها، وما يدور في ذهنها من هواجس، وما يكابدها من ألم. ورغم الإيجاز

الذي اتسمت به الأفكار أو الخواطر فإنها استوفت المعاني المقصودة، إنّه يفعل ذلك بلغة بسيطة شفافة متجنباً والوصف: "إذ يغيب في كل تلك القصص الوصف الخارجي للشخصيات المتحدث عنها؛ فالألم والأسى يطغيان على الملامح البشرية والإنسانية، وتصبح الشخصيات في الغالب دون أسماء. وما يلاحظ على هذه القصص كميّة بنيوية عامة أنها لا تحتفي بالحوار الخارجي؛ فقد غلب على القصص السرد، ويتراجع الحوار الخارجي ليحل محله الحوار الداخلي"¹⁹ (المونولوج)، ولتعبّر الشخصية عن أفكارها المكنونة؛ إنها "بناء سردي منفتح على الاستبطانات الجوانية والرؤى الذهنية للأبطال والشخصيات، وعلى العبور إلى مكانن اللاوعي، قائمة كذلك على اعتماد تخيّل مضاعف، يفتح القصص على عوالم الحلم الملغز، واللعب بأبنية مشذبة يمكنها أن تكشف جزءاً من حقائق الأشياء والعلاقات"²⁰، كان لها أثر كبير في إدماج القارئ في النص القصصي، وإتاحة الفرصة له للمشاركة بكل جوارحه في تصوّر ما تعانیه الشخصية، بإحساس مُعيّن، حيث يدرك ما يدور في خلد الشخصيات وما تحسه من مشاعر وما تفكر فيه، ويتحول خلاله الخيال إلى حقيقة شعورية. وهذا مؤشّر حقيقي على القوة الخارقة التي يتمتع بها الكاتب والتي أتاحت له إمكانية إنتاج عمل مميز يمتلك كل سمات التفرد والتميّز.

خاتمة:

بعد قراءتنا للمجموعة القصصية "ابتكار الألم" للكاتب "محمد جعفر"، وجدنا أنّ الموضوع الجذري الذي تقوم عليه نصوصه هو الألم بجميع صنوفه، حيث تصور المجموعة القصصية جملة من القضايا الاجتماعية والنفسية والسياسية التي أثرت تأثيراً بالغاً واضحاً على الشخصيات ونفسياتها. وذلك من خلال تقديم مشاهد وصفية لحياتها، وتركيز الحديث على الروابط الاجتماعية التي تربط بينها، حيث تتخذ هذه العلاقات الاجتماعية عدّة أشكال كالاعتراف بين الأفراد، والزواج، والصدقة... ممّا يكون في الغالب سبباً في نشوء شعور الألم بجميع أشكاله النفسي والجسدي.

أضفى القاص على مجموعته القصصية جواً من الألم بجميع صنوفه، ليبقى هذا الشعور القاسم المشترك بين جميع أبطال قصصه، تكفي قراءة واحدة لتتبدى لك أنهم ليسوا على ما يرام. جحيم تعيشه الشخصيات في متخيلها وواقعها، وابتكار ألم آخر هو الضرورة التي لا بد منها حتى تتجاوز الألم الحقيقي؛ فالشخصيات هي أحوج ما يكون لابتكار ألم جديد ينسبها الألم الأكبر. ألم مبتكر بتخطيط من أبطال القصص، تمنح الشخصية لنفسها فرصة التخلص من الأول أو الأكبر. وعليه، تظهر قوة الشخصية في التغلب على الأمل الحقيقي، وهو بذلك جمع بين الميّن اثنين؛ أولهما كامن في اللاشعور، وثانيهما مُبتكر يكمن في الألم المعانق أو المعاكس للألم الأول. لقد أصبح الألم موطن الإبداع والابتكار للشخصيات، ومن أجاد فيه استحكم قوّة التغلب على الآلام.

الهوامش:

- ¹ - عادل صادق ، س: 2005، الألم العضوي والنفسي، الناشر، القاهرة ، ص26.
- ² - سعيد بنعبد الواحد ، س: 2005، بعض آراء خوليو كورتازار في القصة، مجلة فاء صاد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، مج1، العدد2، ، ص39.
- ³ -المرجع نفسه، ص39.
- ⁴ -المرجع نفسه، ص40.
- ⁵ -المرجع نفسه، ص39.
- ⁶ -ينظر: أحمد طالب، س: 2006 ، فن القصة القصيرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران ، ص5.
- ⁷ -ينظر: أحمد طالب ، س: 2006، الأدب الجزائري الحديث(المقال القصصي-القصة القصيرة)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ص5.
- ⁸ -ينظر: شرف الدين ماجدولين ، الألم الروائي أفقا للحرية س: 2015، منشورات مختبر السرديات، جامعة بنمسيك، الدار البيضاء، المغرب. ، ص19.
- ⁹ -ينظر: المرجع نفسه، بتصرف، ص19-20.
- ¹⁰ - ينظر: المعاشي شريشي، 2018، النص وهوية المعنى "الكرنفال عتبة للجنون"، الكتاب السنوي لأعمال مختبر السرديات، إشراف/شعيب حليفي، العدد2، المغرب، ص57.
- ¹¹ - اللقاء الأدبي مع الكاتب: محمد جعفر حول مجموعته القصصية "ابتكار الألم"، النادي الثقافي الجاحظية.
- ¹² -محمد جعفر ، س: 2017، ابتكار الألم، منشورات الاختلاف، لبنان، ص9.
- ¹³ -سعيد بنعبد الواحد: س: 2004، بعض آراء خوليو كورتازار في القصة، مجلة فاء صاد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، العدد2، ، ص39
- ¹⁴ -اللقاء الأدبي مع الكاتب: محمد جعفر حول مجموعته القصصية "ابتكار الألم"، النادي الثقافي الجاحظية.
- ¹⁵ - المرجع نفسه.
- ¹⁶ -ينظر: شرف الدين ماجدولين: الألم الروائي أفقا للحرية، بتصرف، ص21-22.
- ¹⁷ - ينظر: المرجع نفسه، ص17.
- ¹⁸ -محمد جعفر: ابتكار الألم، ص16.
- ¹⁹ - ينظر: فراس حج محمد: كتابة تسرد الألم الفلسطيني وتستعيز عن الحوار بالمناجاة، س: 2014 .
- ²⁰ - ينظر: ينظر: شرف الدين ماجدولين: الألم الروائي أفقا للحرية ، ص15.

<https://alarab.co.uk>